

فلسفة قصة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وبعوت أبي طالب وخديجة أفرد النبي صلى الله عليه وسلم بحممه وقلبه ليتجرد من الحالة التي يغلب فيها الحس إلى الحالة التي تغلب فيها الإرادة ، ثم ليخرج من أيام الاستقرار في أرضه إلى الأيام المتحركة به في هجرته ، ثم لينتهي بذلك إلى غاية قوميته الصغيرة المحدودة فيتصل من ذلك بأول طليته الكبرى

وأراد الله تعالى أن يبدأ هذا الجليل العظيم من أسهى خلال الجلال والعظمة ليكون أول أمره شهادة بكمال ، فكانت الحسنة فيه بشهادة السيئة من قومه ، خلفه بشهادة رعونتهم ، وأثباته بدليل طيشهم ، وحكمته ببرهان سفاهتهم ، وبذلك ظهر الروحاني روحانياً في المادة

قالوا فنالت منه قريش ، ووصلوا من أذاه إلى مالم يكونوا يصلون اليه في حياة عمه ، حتى نثر بعضهم التراب على رأسه ، كأنما يعلمونه أنه أهون عليهم من أن يكون حراً فضلاً عن أن يكون عزيزاً فضلاً عن أن يكون نبياً ؛ قالوا فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته والتراب على رأسه ، فقامت اليه إحدى بناته تفسل عنه التراب وهي تبكي

كانت تبكي إذ لا تعلم أن هذا التراب على رأس النبي العظيم هو شذوذ الحياة الأرضية الدنيئة في مقابلة إنسانها الشاذ المنفرد . هذه القبضة من التراب الأرضي قبضة سفهة نحاول رد الممالك الإسلامية العظيمة أن ننشأ نشأتها وتعمل عملها في التاريخ ؛ فهي في مقدارها وسخافتها ومحاولتها كمثل قريش حينئذ في مقداره وسخافته ومحاولته

أما النبي صلى الله عليه وسلم فقال لبنته : يا بني لا تبكي فإن الله مانع أباك . حسبت ذلك هواناً وضيمَةً فأعلمها أن قبضة من التراب لا تطمر النجم ، وأن هذه الحشوة الترابية لا تسمى معركة أثارتها الخيل فجاءت بنتيجة ، وأن ساعة من الحزن في يوم لا يحكم بها على الزمن كله ، وأن هذه الزوة التي تحركت الآن هي حق النبوة قوتها نهايتها

« يا بني لا تبكي فإن الله مانع أباك » . أى ليس للنبي كبرياء ينالها الناس أو يعرضون عنها فيأتى الدمع مترجماً عن المعنى الانساني الناقص مثبتاً أنه ناقص ؛ إنما هي النبوة قانونها غير

هالكت خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وهلك عمه أبو طالب في عام واحد في السنة العاشرة من النبوة ، فغطت المصيبة فيهما عليه ، إذ كان عمه هذا ينتمى من أذى قريش ، ويقوم دونه فلا يخلصون اليه بمكره ؛ وكان أبو طالب من قريش كالمقيدة السياسية ، هي بطبيعتها قوة نافذة على قوة القبيلة ، فمن ثم كان هو وحده المشكلة النفسية للمقيدة التي تعمل قريش جاهدة في حلها ، وقامت المعركة الإسلامية الأولى بين إرادتهم وإرادته ، وهم أمة تحكمهم الحكمة الاجتماعية التي تسير عنهم في القبائل وتاريخهم ما يقال في الألسنة من معاني المدح والذم ، فيخشون المقابلة أكثر مما يخشون الغارة ، وقد لا يزالون بالقتلى والجرحى منهم ، ولكنهم يباليون بالكلمات الجروحة

فكان من لطيف صنع الله للإسلام ، وعجيب تدبيره في حماية نبيه صلى الله عليه وسلم - وضع هذه القوة النفسية في أول تاريخ النبوة ، تشتغل بها سخافات قريش ، وتكون عملاً لفراغهم الروحي ، وتثير فيهم الاشكال السيامي الذي يعطل قانونهم الوحشي إلى أن يتم عمل الأسباب الخفية التي تكسر هذا القانون ؛ فإن الصنع الإلهي لا يخرج أعماله النامة العظيمة إلا من أجزاء دقيقة

أما خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانت في هذه الحقبة قلباً مع قلبه العظيم ، وكانت لنفسه كقول (نعم) للحكمة الصادقة التي يقول لها كل الناس (لا) ، وما زالت المرأة الكاملة المحبوبة المحبة هي التي تعطى الرجل ما نقص من معاني الحياة ، وتلد له السرات من عواطفها كما تلد من أحشائها ، فالوجود يعمل بها عمليين عظيمين أحدهما زيادة الحياة في الأجسام والآخر إتمام نقصها في المعاني

ألا ما أكل هذه الانسانية التي تثبت أن قوة الخلق هي درجة أرفع من الخلق نفسه ؛ فهذا فنُّ الصبر لا الصبر فقط ؛ وفن الحلم لا الحلم وحده

قوة الخلق هي التي تجعل الرجل العظيم ثابتاً في مركز تاريخه لا متقللاً في توارخ الناس ، محدوداً بمظاهر شخصيته الخالدة لا بمصالح شخصه الفاني ، ناظرآ في الحياة إلى الوضع الثابت للحقيقة لا إلى الوضع المتغير للمنفعة

وما كان أولئك الأشرافُ وسفهاؤهم وعبيدهم إلا معاني الظلم والشر والضعف تقول للنبي العظيم الذي جاء بمحوها ويُبدل منها : إننا أشياء ثابتة في البشرية

لم يكن منهم الأشراف والسفهاء والعبيد ، بل كان منهم المسفُّ والرَّق والعطيش ، تسخر ثلاثها من نبي العدل والحريّة والعقل فما تسخر إلا من نفسها

صفائر الحياة قد أحاطت بعجد الحياة لتثبت الصفائر أنها الصفائر وليثبت المجد أنه المجد . كان الفريقان هما الفكرتين المتعاديتين أبداً على الأرض : إحداها عش لنا كل وتستمتع وإن أهلكت ؛ والأخرى عش لنعمل ونفنع الناس وإن هلكت كانت الأقدار تنادي هذا الروح الواسع بذلك الروح الضيق لينطلق الواسع من مكانه ويستقبل الدنيا التي عليه أن يذسها . فأولئك الأشراف والسفهاء والعبيد إنهم إلا الضيق والركود وذُلُّ العيش ، حول السعة الروحية والسمو وطهارة الحياة

وقف المعنى السامى بين معاني الأرض ؛ ولكن نور الشمس ينسبط على التراب فلا يعفّره التراب ، وما هو بنور يضيء أكثر مما هو قوة تعمل بالعناصر التي من طبيعتها أن تتحول في العناصر التي من شأنها أن تتحول

وكان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أولئك المستهزئين قوة أخرى هي القدرة التي تعمل بهذا النبي للعالم كله ، وبهذه القدرة لم ينظر النبي إلى قريش وصوتهم عليه إلا كما ينظر إلى شيء انقضى ، فكان الوجود الذي يحيط به غير موجود وكانت حقيقة الزمن الآتي تجعل الزمن الحاضر بلا حقيقة

وإلى هذه القدرة توجه النبي صلى الله عليه وسلم بذلك الدعاء

ما اعتادت الناس من أفراح وأحزان ، وهي النبوة تجعل المختار لها غير محدود بجسده الضعيف ، بل حدوده الحقائق التي فيها قوتها ؛ فهو في منحة الواقع الذي لا بد أن يقع ، فلو أمكن أن يحذف يوم من الزمن أو يؤخر عن وقته أمكن أن يؤخر النبي أو يحذف

« يا بنية لا تبكي فإن الله مانعُ أباك » . لا والله ما يقول هذه الكلمة إلا نبيُّ وسع التاريخ في نفسه الكبيرة قبل أن يوجد هذا التاريخ في الدنيا ، فكلمته هي الايمان والثقة إذ يتكلم عن موجود

ترابٌ ينثره سفيه على رأس النبي . ويحك يا حقارة المادة إن ارتفاعك لعنة ، إن ارتفاعك لعنة

قالوا : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصر والمنة له من قومه : فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادتهم وأشرافهم جلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلهم بما جاءهم له من نصرته والقيام معه في الاسلام على من خالفه من قومه ، فلم يفعلوا وأغروا به سفهاهم وعبيدهم يسبونونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وأجلاؤه إلى حائط^(١) لمُتَبِّة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه . ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد صلى الله عليه وسلم إلى ظل حُبلة من عنب جلس فيه وابنا ربيعة ينظران اليه ويريان ما لقي من السفهاء

فلما اطمان صلى الله عليه وسلم في مجلسه قال : اللهم اليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس ؛ يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؛ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمرى ؛ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل علي سخطك ، لك العُتْبَى حتى رضى لا حول ولا قوة إلا بك

قالوا : ورأى ابنا ربيعة عتبة وشيبة ما اتى النبي صلى الله عليه وسلم من السفهاء فتحركت لرحمتهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عداس ، فقالا له : خذ قطعاً من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له يأكل منه . ففعل عداس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما وضع يده قال : بسم الله ، ثم أكل ؛ فنظر عداس إلى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس وما دينك ؟

قال : أنا نصراني وأنا رجل من أهل نينوى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى . قال : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال صلى الله عليه وسلم : ذاك أخى كان نبياً وأنا نبى فأكب عداس على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه ورجليه

يا حبيباً لرموز القدر في هذه القصة

لقد أمتزج الخير والكرامة والاحلال فأقبلت تفتخر عن الشر والسفاهة والطيش ، وجاءت القبلات بعد كلمات المداوة وكان ابنا ربيعة من أعداء الاسلام ، وعمن مشوا إلى أبى طالب هم النبي صلى الله عليه وسلم من أشرف قريش يسألونه أن يكفهم عنهم أو يخلى بينهم وبينه ، أو يتأذوا به ، أو يتأذوا به حتى يهلك أحد الفريقين ، فالتفت الغريزة الوحشية إلى معناها الانسانية الذى جاء به الدين لأن المستقبل الدبنى للفكر لا للغريزة وجاءت النصرانية تمانق الاسلام وتمزه إذ الدين الصحيح من الدين الصحيح كالأخ من أخيه ، غير أن نسب الاخوة الدم ونسب الأديان العقل

ثم أتم القدر رمزه في هذه القصة ، بقطف العنب سائماً عذباً ملوفاً حلواً ؛ فبإسم الله كان قطع العنب رمزا لهذا المنقود الاسلامي المغليم الذى امتلأ حباً كل حبة فيه مملكة

عن عبد الله بن قيس

(ملطاً)

لإلاد يشكو أنه إنسان فيه الضعف وقلة الحيلة ، فينطق الانسانى به بالشطر الأول من الدعاء يذكر انفراده وآثار انفراده ويتوجه إلى بينته وبين انسانية قومه ؛ ثم ينطق الروحاني فيه بعد ذلك إلى آخر الدعاء متوجهاً إلى مصدره الآلهى قائلاً أول ما يقول : ن لم يكن بك على غضب فلا أبالى

ولعمري لو نطقت الشمس تدعو الله لما خرجت عن هذا المعنى ولا زادت على قوله أعوذ بنور وجهك ، تلتمس من مصدر النور الأزلى حيطة وجودها السكامل

ولقد هزأوا من قبل بالمسيح عليه السلام فقال للآخرين منه : ليس نبى بلا كرامة إلا فى وطنه وفى بينته ، وبهذا رد عليهم رد من انسلخ منهم ، وقال لهم قول من ليس له حكم فيهم ، وأخذهم بالشريعة الأدبية لا العملية ؛ إذ كان عليه السلام كالحكمة الطائفة ليست لكل قلب ولا لكل عقل ، ولكنها من أعيد لها ، وشريعته أكثرها فى التعبير وأنفلسها فى العمل ، ولم تجىء بالقوة الماملة فلم يكن بد من أن تضع الموعظة فى مكان السيف ، وأن تكون قاعة على النهى أكثر مما هى قاعة على الأمر ، وأن تكون كشمس الشتاء الجيلة لا تغلى بها الأرض وإنما عملها أن تمتد هذه الأرض لفصل آخر

أما نبينا صلى الله عليه وسلم فلم يجب المستهزئين إذ كانت القوة الكامنة فى بلاد العرب كلها كامنة فيه ، وكان صدره العظيم يحمل للعالم كلمة جديدة لا تقبل الدنيا أن تامله عليها إلا بطريقها الحربية ؛ فلم يرد رد الشاعر الذى يريد من السكامة معناها البليغ ولكنه سكت سكوت المشرع الذى لا يريد من السكامة إلا عملها حين يتكلم . وكان فى سكوته كلام كثير فى فلسفة الارادة والحربة والتطور وأن لا بد أن يتحول القوم وأن لا بد أن يتفطر هذا الشجر الأجرد عن ورق جديد أخضر ينمو بالحياة

لم ينسخط ولم يقل شيئاً وكان كالصانع الذى لا يرد على خطأ الآلة بسخط ولا بأس بل بارسال يده فى إصلاحها
